Coptology

غفران الخطايا

حسب تسليم صلواتنا الكنسية القبطية الأرثوذكسية

دكتور

جورج حبيب بباوي

أغسطس ٢٠١٣

www.coptology.org

مقدِّمة

كلمة لا بُد منها

لست أزعم العصمة، كما أنني لا أدَّعي أنني أعرف كل شيء عن الأرثوذكسية، فلم أسمع ولم أقرأ عند آباء الكنيسة مَن ادَّعى لنفسه العصمة في التعليم، أو المعرفة الكاملة، بل كان كل جيل الآباء في حقبة هامة من تاريخنا شملت القرن الرابع والقرن الخامس، هو جيل المراجعة الشاملة لِما كُتِبَ، وكان القرن الخامس بالذات بدايةً بالقديس كيرلس الكبير هو عصر وضع المراجع التي اعتمد عليها عندما يقدِّم نصوصاً من عند القديس أثناسيوس العظيم، ولم يكن لدى أحد الادعاء بالعصمة، بل لم يكن موضوع العصمة مطروحاً بالمرة، ولا حتى المعرفة الشاملة، وذلك لسببٍ واحدٍ أصيل ودقيق، وهو أن الأرثوذكسية الحقيقية هي الاختبار الشخصي الذي يشرب من التسليم الكنسي الذي درجنا على تسميته بالاسم الغامض "التقليد"، وهو اسمٌ غامضٌ لغوياً حسب لغتنا العربية، واسمٌ يبعدنا عن نهر الحياة الحقيقية، أي "التسليم الكنسي" الذي يسلِّمُه المعلم الكنسي مبتدئاً بالممارسة، أي الصلاة الليتورجية، إلى أن يسلِّم أهم ما في الحياة المسيحية الأرثوذكسية، وهو "التمييز والإفراز"؛ لأن ما يُسلَّم ليس نصاً أو كلمات، إنما هو أساسات الشركة التي استُعلِنَت في الرب يسوع المسيح، وهي:

* اتحاد الله الثالوث بنا في تجسد الابن الوحيد.

* إبادة كل موانع الاتحاد: الخطية والموت.

* نقل حياة يسوع الظافرة إلينا بالروح القدس.

* تسليم هذه الحياة في السرائر المقدسة: المعمودية، والمسحة الإلهية، والإفخارستيا، وسر التعليم الكنسي(١)، وفي هذا السر، أي سر التلمذة يُسلَّم الإيمان نفسه، كما قال القديس كيرلس الكبير نفسه إنه دَرَسَ الأسفار مع الآباء والشيوخ(٢)، وتعلم اللاهوت من الحياة الليتورجية. ولذلك، مَن يدرس بعناية شرح إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا للقديس كيرلس الكبير يسمع صوت القداسات والتسبحة، ويقرأها باللغة اليونانية الأنيقة التي تميّز بها القديس كيرلس الكبير.

أكتب هذه العبارات وقلبي يدق بعنفٍ شديد خوفاً على الذين يكتبون عن "فكر أثناسيوس"، أو "مفهوم التدبير عند كيرلس"، أو ....

إن هؤلاء الآباء لم يكونوا رعاةً وأساقفةً وخداماً عاشوا الحياة الكنسية وصلوات الكنيسة وكأنهم جالسون في مكتبة في أثينا أو لندن أو غيرها من مدن أوربا، يؤلفون ويكتبون عن أمورٍ خطرت على عقولهم، بل تعرَّض بعضهم للموت. ومَن يعتقد بغير ذلك يكون تصوره تصوراً خاطئاً بعيداً كل البُعد عن الحقيقة التاريخية التي تطالعنا في كتب التاريخ. وهكذا يذكِّرنا القديس أثناسيوس الرسولي بالفرق بين المعنى والشرح الكنسي للكتاب المقدس، والشرح الخاص الذي تبناه الهراطقة؛ لأن الشرح الكنسي إنما يقوم على معنى كلمات الوحي في "مجال الأسفار"(٣).

لقد أصبحت قلقاً بشأن ما يدور من نقاشٍ ابتعد عن التسليم الكنسي (التقليد) وانطلاق عدد كبير في شرح الأسفار المقدسة حسب الأهواء، بل وحسب ما يسود التعليم المعاصر في الحقبة الزمنية التي تبدأ بالأنبا شنودة الثالث، والتي سادت فيها صرخة

---

(١) الذي تحول إلى سر التوبة والاعتراف نقلاً عن التقسيم الغربي الكاثوليكي الذي جاء مع مجمع ترانت الذي حكم ببطلان حركة الإصلاح البروتستانتية (١٥٤٥ – ١٥٦٤).

(٢) راجع: ACO 1.1.3.13,22: 8 - 10.

(٣) راجع في ذلك كتابنا: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي، القاهرة ٢٠١٢، ص ١٣٩ وما بعدها، والكتاب منشور على موقع: www.coptology.com

واحدة مؤداها أن الكتاب المقدس وحده هو مصدر التعليم، وهو خطأٌ تاريخيٌّ قاتل؛ لأن هذه الصرخة هي ذاتها صرخة حركة الإصلاح الأوربي في القرن السادس *Sola Scriptue* أي الكتاب المقدس فقط. وقد تمزقت هذه الحركة إلى ثلاث فرق، تفرقت بعد ذلك إلى أن وصلت اليوم في أمريكا الشمالية إلى ٣٠ ألف فرقة (شيعة).

الكتاب المقدس ليس مصدراً للعقيدة Doctrine

التعليم الإنجيلي الأوربي هو تعليم يقوم على حشد أكبر قدر من نصوص الكتاب المقدس بعهديه لإثبات تعليم معيَّن[١]، ولكن مصدر العقيدة في الأرثوذكسية الحقيقية هو **حياة الرب يسوع المسيح** نفسه، أي استعلان الله في تجسد الابن الكلمة، وفي انسكاب عطية الروح القدس ... عن هذا تشهد الأسفار المقدسة.

إذن، ما سبق الأسفار هو **التجسد**، وهو ما تشهد له الأسفار، وما يعطى في حياة يسوع هو: **هبة الحياة الأبدية**، وهي عطية شخصية تعطى بالتعليم، وتعطى بالروح القدس لكي تقود إلى الشركة في حياة يسوع المسيح رب المجد. وهكذا يقدِّم رسول المسيح التسليم الكنسي:

"هل تجهلون أننا نحن كل واحد منا اعتمد ليسوع اعتمدنا لموته فدُفنا معه في المعمودية للموت حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب نسير نحن أيضا في الحياة الجديدة جداً" (رو ٦: ٢ – ٤ حسب الأصل اليوناني والترجمة القبطية).

ولو عُدنا إلى تعليم الرب في نهاية إنجيل متى (٢٨: ١٩)، نجد أن الوصية هي: "عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". ولكن لم يرد شيئاً عن المعمودية كموت – ودفن – وقيامة؛ لأن التسليم الكنسي لم يكن مودعاً في نص الإنجيل، بل عُرِضَ في كرازة

---

(١) راجع ملاحظة القديس باسيليوس في كتابه "الروح القدس" عن مهارة المراطقة في حشد أكبر قدر ممكن من نصوص الكتاب المقدس.

الرسول. بل عندما تجمع عاصفة العودة إلى شريعة موسى قوتها لكي تدمر الإنجيل من الداخل، ولكي تحفظ التمايز العرقي على أساس شريعة موسى، يعود الرسول بولس إلى المعمودية التي رفعت كل الحواجز بين البشر، وإلى العهد الجديد الذي أبطل وساطة الشريعة "لأنكم جميعاً الذين اعتمدوا في المسيح قد لبسوا المسيح، ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبدٌ ولا حُرٌّ. ليس ذكر، ولا أنثى لأنكم جميعاً واحداً في المسيح يسوع" (غل ٣: ٢٧ – ٢٨). فكيف حذفت المعمودية ذلك التمييز العرقي، وكيف رفعت وساطة الشريعة، بمعنى أن تقرِّب الشريعةُ الإنسانَ لله بالممارسة؟ والجواب: هو التسليم الكنسي الذي أُسِّس في تجسد ابن الله الذي فيه دائماً وإلى الأبد:

– "يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً"،

والذي فيه صار البشر

– "مملوؤن فيه"،

والذي بالتجسد

– "هو رأس كل رياسة وسلطان".

هذا هو التعليم الذي أبطل وساطة الشريعة، ولكن الممارسة تجيء فوراً:

"وبه (فيه) أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوعٍ بيدٍ (ليس بواسطة إنسان) بخلع جسم خطايا البشرية (الطبيعة الآدمية القديمة) بختان المسيح، مدفونين معه في المعمودية التي فيها (المعمودية) أخذتم قيامةً أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات" (كو ٢: ١١ – ١٢).

هكذا صارت حياة الرب يسوع هي مصدر العقيدة، وهي مصدر التسليم الكنسي.

ولم يتوقف الرسول عند ذلك، بل يقول عن حالتنا: "وإذ كنتم أمواتاً بالخطايا وغلف جسدكم،

أحياكم معه،

مسامحاً لكم بجميع الخطايا" (راجع كو ٢: ٩ – ١٨).

و"جميع الخطايا" هنا ليست هي خطية آدم كما يُشاع في التعليم الشعبي، بل يظهر معناها الحقيقي في عطية الحياة الجديدة: "لأنه محا الصك الذي علينا في الفرائض (ما تطلبه الشريعة) الذي كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط (دق فيه المسامير حسب الممارسة التجارية السائدة في زمن الرسول بولس الخاصة بدفع صكوك الديون – الكمبيالات – التي كانت تُمزَّق بالثقوب فتفقد حجيتها في المحاكم وتفقد قيمتها) مسمِّراً إياه في الصليب (تسمير الصك في الصليب هو تعبير استعاري *metaphorical* يعني أن الصك فقد قيمته تماماً، ولا يعني أن الرب قد دفع الثمن حسب ادعاء العلامة مطران دمياط الذي يتبنى التعليم غير الأرثوذكسي، بل فقدان سلطان الشريعة علينا أي سلطان الموت؛ لأن الرب أباد الموت لأن الرسول بولس يقول: "كنتم أمواتاً في الخطايا .... أحياكم معه" (كولوسي ٢: ٩ – ١٤ مع الاعتذار عن إدراج الشرح في نص وكلمات رسول الرب)".

التسليم حسب الممارسة في الليتورجية

إن ما يقال في التعليم الشعبي المعاصر، ولدينا الكثير منه في مقالات وتسجيلات صوتية، لا يستحق الاقتباس؛ لأنه مجرد رأي شخصي حسب هوى من أراد أن يكون معلماً دون أن يراجع ما يقوله في الوعظ على ما سُلِّمَ في الممارسة الكنسية. ويمكننا أن نسوق مثالاً صارخاً على ما نقول، وهو هبة الروح القدس للتلاميذ بعد قيامة الرب حسب إنجيل يوحنا (٢٠: ١٩ – ٢٢). فالادعاء بأن هذا خاصٌ بالكهنوت وحده هو ادعاءٌ كاذبٌ؛ لأن صلوات المعمودية في كنيسة أم الشهداء حسب كل ما لدينا من مخطوطات، وما هو مطبوعٌ منها، تقول إنه بعد رشومات الميرون يضع الكاهن

يده على الذي نال سر المعمودية ويقول:

"لتكن مباركاً ببركة السمائيين وبركة الملائكة القديسين، يباركك الرب يسوع المسيح . وباسمه. (ثم ينفغ على وجه الذي اعتمد ويقول): "اقبل الروح القدس ولتكن إناءً مقدساً (طاهراً) من قبل الرب يسوع المسيح ...".

وتُعطى ذات النفخة في رسامة الشماس الدياكون، ثم القس، والأسقف. ومن الواضح أن نفخة الروح القدس في المعمودية، أي بعد الرشم بالميرون، لا علاقة لها بما صار يُعرف في العصر الوسيط بـ"سلطان الكهنوت"، وهو تعبيرٌ واسمٌ لا نجده في كتب الليتورجيا، بل هي –حسب شرح القديس كيرلس لكلمات الرب يسوع في إنجيل يوحنا (٢٠: ٢٢)– هي رَدُّ عطية الروح القدس التي وُهِبت لآدم عند خلقته (تك ٢: ٧)، والتي فُقِدت بالسقوط، والآن في المسيح تُعاد من جديد حسب التسليم الرسولي الذي عُرِفَ باسم "تجديد الروح القدس" (تيطس ٣: ٥)، بل إن القراءة الدقيقة لكلمات الرسول بولس تشرحها الممارسة الليتورجية: "بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني (المعمودية) وتجديد الروح القدس الذي سكبه علينا بغنى بيسوع المسيح مخلصنا" (تيطس ٣: ٥)، وهو نص البولس في خدمة المعمودية في كنيسة أم الشهداء.

شرح القديس كيرلس الكبير لكلمات يو ٢٠: ١٩ – ٢٢

"أخذ الله الآب في البدء بواسطة كلمته تراباً من الأرض – كما هو مكتوب – وخلق الإنسان كائناً حياً وأعطاه النفس *Soul* حسب إرادته (الكلمة)، وأناره بنصيبٍ في روحه لأنه نفخ في أنفه نسمة الحياة – كما هو مكتوب (تك ٢: ٧) – ولكن بعد ذلك وبسبب التعدي سقط الإنسان تحت سلطان الموت وفَقَدَ كرامته الأولى. ولكن الله الآب أعاد تكوينه من جديد وردَّه إلى الحياة الجديدة بواسطة الابن – كما كان في البدء – فكيف جدده الابن؟ بموت جسده ذبح الموت، وأعاد جنس البشر من جديد إلى عدم الفساد لأن المسيح قام لأجلنا. ولكي نعرف أنه هو الذي في البدء خلق

طبعنا وختمنا بالروح القدس؛ أعطانا الابن عطية الروح القدس بواسطة علامةٍ، وهي نفخته للتلاميذ القديسين لأنهم هم باكورة ثمار الطبيعة الجديدة. لأن موسى كتب عن خلقتنا القديمة أن الله نفخ في أنف الإنسان نسمة الحياة. وكما كان في البدء أن الإنسان جاء إلى الوجود، هكذا الآن أيضاً بنفس الأسلوب الذي خُلِق به، يتجدد. وكما خُلِقَ في البدء وكوِّن ليكون صورة خالقه، هكذا الآن أيضاً بالشركة في الروح القدس يتحول إلى مثال خالقه لأن الروح يطبع صورة المخلص على قلوب الذين يقبلونه – وهذا غير قابل للجدل – لأن بولس علانيةً يعظ الذين سقطوا بسبب الضعف وعادوا إلى حفظ الشريعة بهذه الكلمات: "يا أولادي الذين أتمخض بهم حتى يتكون المسيح فيهم" (غل ٤: ١٩)، فهو هنا يقول إن المسيح لن يتكون فيهم إلَّا بالشركة في الروح القدس وبالحياة حسب شريعة الإنجيل" (ك ١٢ مجلد ٢).

الأفعال الخاصة بالمغفرة في العهد الجديد

حسب الأصل اليوناني لدينا ثلاثة أفعال رئيسية تُرجمت إلى العربية بفعل واحد "يغفر"، فضاع فيها الجانب اللاهوتي، هذه الأفعال هي:

أولاً: الفعل aphimi – άφίημι

وهو أكثر الأفعال استعمالاً في العهد الجديد ويعني "يترك". وقد ورد في الصلاة الربانية: "اترك لنا ما علينا" (مت ٦: ١٢). "إن لم تتركوا للناس زلاتهم لا يترك لكم أبوكم السماوي زلاتكم" (مت ٦: ١٤ – ١٥). راجع أيضاً: مت ٩: ٢، مت ٩: ٥ – ٦، مت ١٢: ٣١ – ٣٢، مت ١٨: ٢١ – ٣٥. ونفس الفعل ورد في مرقس ٢: ٥، وغيرها في نفس كلمات الرب، وفي لوقا أيضاً ٥: ٢٠ وغيرها.

من الضروري أن نشير هنا إلى أن ذات الفعل ورد في يوحنا ٢٠: ٢٣ "مَن تركتم خطاياه تركت لهم"، وسوف ندرس نص يوحنا ٢٠: ١٩ - ٢٣.

مثالٌ على ترك أو مغفرة الدين

الذين يكتبون عن دفع الدين لله الآب كعمل قام به الابن له المجد، عليهم أن يراجعوا أنفسهم وأن يدققوا في كلمات الرب في المثل الذي أجاب به الرب نفسه على سؤال بطرس: كم مرة يخطئ إليَّ أخي وأنا أغفر (أترك) له، هل إلى سبع مرات (عدد الكمال)؟ وكان ردُّ الرب: "لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات"، وفوراً قال الرب هذا المثل: "لذلك يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبيده. فلما ابتدأ في المحاسبة قُدِّم إليه واحدٌ مديون بعشرة آلاف وزنة، وإذ لم يكن له ما يوفي أمَرَ سيده أن يباع هو وكل ما له ويوفي الدين. فخر العبد وسجد للملك قائلاً يا سيد تمهل عليَّ ... فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين ... " (مت ١٨: ٢١ - ٢٨). لكن بكل أسفٍ لم يربح ذلك العبد الشرير من هذا الغفران شيئاً لأنه لم يترك دين عبدٍ آخر هو مائة دينار بما يمثل واحد إلى ألف من دين ذلك العبد الشرير. وكانت خاتمة المثل تحذيرٌ رهيب من الرب نفسه: "هكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحدٍ لأخيه زلاته" (مت ١٨: ٣٥).

ثانياً: الفعل ἀπολύω – apolyo

ورد مرةً واحدةً في لوقا ٦: ٣٧ في التعليم الإلهي:

"كونوا رحماء لأن أباكم أيضاً رحيم.

لا تدينوا لكي لا تدانوا.

لا تحكموا على أحدٍ فلا يُحكم عليكم.

اتركوا يُترك لكم (أو اغفروا يغفر لكم)".

ثالثاً: الفعل charizomai – χαρίξομαι

وهو فعل هام وضروري، ورد ثماني مرات، وهو يعني بكل دقة لغوية ممكنة "العطاء السخي أو العطاء الكريم جداً". وقد ورد هذا الفعل في حادثة ذات دلالة، تمثَّلت في الفخ الذي أعده الفريسي للرب يسوع عندما دعاه للعشاء عنده، عندئذٍ جاءت "زانية في المدينة"، وهو وجود – في الوضع الطبيعي – غير ممكن؛ لأن دعوة العشاء لا تشمل ذوي السيرة السيئة (الأمر الذي يعني أن الفريسي كان قد أعدَّ فخاً للرب يسوع حتى يختبر سلوكه تجاهها)، ولكن المرأة رأت في يسوع رجلاً لم تشاهد مثله من قبل، وهكذا انسكبت تغسل قدمي الرب بدموعها وتمسحهما بشعرها وسكبت قارورة طيب على قدميه ... هنا يقول الرب إن الغفران هو سخاءٌ كثير أو غفرانٌ كثير (لو ٧: ٤٧)، سخاءٌ وعطاءٌ من الرب نفسه. وهو نفس طلب رسول المسيح مع الأخ الزاني في كنيسة كورنثوس، أن تكون الكنيسة سخية وكريمة جداً، أي أن تغفر له (٢ كور ٢: ٧ – ١٠).

ولا شك أن سخاء وعطاء المسيح من نحونا نحن البشر هو بنفس الصورة وبنفس الكرم والسخاء، ولكن الترجمة العربية جاءت شحيحة جداً لا تعبِّر عن هذا الكرم والسخاء: "كونوا لطفاء ... شفوقين ... ثم، متسامحين كما سامحكم الله أيضاً في المسيح" (أف ٤: ٣٢)، وهكذا سقطت القوة الكامنة في الفعل اليوناني؛ لأن الله كان سخياً وكريماً في المسيح، وعلينا أن نكون كذلك لأنه نفس السخاء الذي ورد في كولوسي ٢: ١٣ "مسامحاً لكم بكل الذنوب"، وهو ما لم نطلبه نحن عندما مات الرب عنا، ولأننا نخلع الطبيعة القديمة ونلبس "أحشاء رأفات ولطف وتواضع ومحبة ووداعة وطول أناة محتملين بعضكم بعضاً، ومسامحين بعضكم بعضاً، إن كان لأحد على أحدٍ شكوى، كما غفر لكم المسيح، كما كان المسيح سخياً وكريماً هكذا أنتم أيضاً" (كو ٢: ١١ – ١٣).

الصلوات الخاصة بمغفرة الخطايا في الليتورجية

تعد إنذارات الدياكون (مردات الشماس) الخاصة بطلب المغفرة والرحمة طلبات أساسية في الصلوات الليتورجية، سواء في صلوات رفع البخور -عشية وباكر - أو في الأواشي، وهي إنذارات يجب ألَّا تقال بسرعة، بل في تؤدة وهدوء حتى ينتبه إليها شعب الكنيسة.

البداية الدائمة هي صلاة الشكر في كل الخدمات الإلهية ... ويقول الشماس بعد بداية صلاة الشكر: "اطلبوا لكي يرحمنا الله ... ويقبل سؤالات وطلبات قديسيه منهم، بالصلاح عنا في كل حين ويغفر لنا خطايانا".

ويجيب الشعب: يا رب ارحم.

طلب الغفران هنا هو صلاة يشترك فيها قديسي الكنيسة الذين يطلبون ما هو صالح مع الشعب، ونداء الشماس هو طلب من كل شخص حاضر في الكنيسة أن يكون لديه الاستعداد القلبي لكي يطلب الغفران لنفسه.

وفي أوشية الراقدين يطلب الدياكون من الشعب أن يصلي من أجل الراقدين: "أطلبوا عن ابائنا وأخوتنا الذين رقدوا وتنيحوا في الإيمان بالمسيح"، ثم يختم الطلب موجِّهاً الطلبة للحاضرين: "ونحن أيضاً يصنع معنا رحمة ويغفر لنا خطايانا".

وفي أوشية المرضى يطلب الشماس أن يصلي الشعب عن المرضى: "أطلبوا عن آبائنا وأخوتنا المرضى ... لكي المسيح إلهنا ينعم لنا ولهم بالعافية والشفاء ويغفر لنا خطايانا". وبعد أن يصلي الشعب يطلب الكاهن عن المرضى: "أعطها خلاصاً، أعطها غفران خطاياها وآثامها".

هذه الطلبات ليست كلمات صادرة في فراغ، بل هي صلوات الإيمان في كل الأواشي، حتى في أوشية المسافرين، والقرابين، بل وفي تقديم البخور للأسقف:

"أطلب من المسيح عنا ليغفر لنا خطايانا".

ومع تقديم البخور للقمص يقول نفس الكلمات.

الكنيسة أم الشهداء التي تذكِّرنا في هذه الصلوات بأن الرب يسوع "فتح باب الفردوس وردَّ آدم إلى رئاسته مرةً أخرى"، ثم "من قِبَلِ صليبه وقيامته المقدسة ردَّ الإنسان مرةً أخرى إلى الفردوس"، هذه الكنيسة تؤمن بضرورة طلب الغفران مباشرةً من الثالوث القدوس.

ورغم أننا لا نعرف – تاريخياً – سبب وجود الصلاة المسماة في المراجع العربية وحدها بـ "سر الرجعة"، وهي طلبة عامة من الخادم إلى الرب يسوع في القداس:

"يا الله الذي قَبِلَ إليه اعتراف اللص، وهو (الرب) على الصليب المكرم، أقبل إليك اعتراف شعبك، أغفر لهم جميع خطاياهم من أجل اسمك القدوس، الذي دُعيَ علينا كرحمتك يا رب ولا كخطايانا".

إلاَّ أن ما لدينا من معلومات تاريخية عن إلغاء سر الاعتراف في فترة ما في تاريخ الكنيسة هو أمر ثابت، وأن حلول الاعتراف على المجمرة محل الاعتراف على الأب الكاهن، ربما هو سبب وجود هذه الصلاة[١] ولكن الذي يهمنا أن نلاحظه هنا هو أنها صلاة بلا تحليل يُعطى من الأب الكاهن، ودون ذكر خطايا معينة لأن العبارة واضحة جداً:

"أقبل إليك اعتراف شعبك. أغفر لهم جميع خطاياهم من أجل اسمك القدوس".

إضافةً إلى ما تقدم، يجب أن ننتبه إلى أن الليتورجيا تعلن لنا أن المسيح هو:

---

(١) راجع القداس الإلهي سر ملكوت الله، الجزء الأول، الأب القس أثناسيوس المقاري، ٢٠٠٨، ص ٤٢٣.

"حياتنا كلنا. وخلاصنا كلنا.
"رجاؤنا كلنا. وشفائنا كلنا
"وقيامتنا كلنا" (أوشية الإنجيل).

وبعد قراءة الإنجيل في باكر - رفع البخور يتكرر طلب الغفران في نداء الدياكون في صلوات الأواشي.

التحليل العام للشعب – تحليل الابن في رفع البخور

يمكننا أن نميز في هذا التحليل العناصر الآتية:

* يستدعي الكاهن الرب يسوع:

"أيها السيد الرب يسوع المسيح الابن الوحيد كلمة الله الآب".

* يؤكد أنه هو:

"الذي قطع كل رباطات خطايانا من قبل آلامه المخلصة المحيية".

* المسيح الحي من الأموات:

"هو الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين .. وقال لهم أقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم غُفِرَت لهم ومن أمسكتموها عليهم أُمسِكَت (يو ٢٠: ٢٢ - ٢٣)".

* استعلان عمل المسيح ونعمة غفران الخطايا في نعمة الكهنوت:

"أنت الآن يا سيدنا من قِبَل رسلك الأطهار أنعمت للذين يعملون في الكهنوت في كل زمان في كنيستك المقدسة أن يغفروا ويربطوا كل رباطات الظلم".

* هذا ليس سلطاناً مستقلاً عن الرب يسوع؛ لأن الصلاة هي طلبة، ومَن يطلب لا يملك بل يأخذ نعمة الممارسة:

"الآن أيضاً نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر ....".

ولعل القارئ الفطن قد لاحظ أنها صلاة بصيغة الجمع، وربما السبب الأول هو وجود أكثر من كاهن في الخدمة، وربما السبب الأصلي هو أن كل الصلوات هي صلوات الكنيسة كلها: الكاهن والشعب والشماس؛ لأن كل الصلوات بصيغة الجمع.

* يرشم الشعب أولاً، ويقول:

"أبائي وأخوتي".

ثم يرشم ذاته ويقول:

"وضعفي".

مؤكداً أنه يطلب مع الكل بكلمات قاطعة لا تحتمل التأويل:

"هؤلاء الخاضعين برؤوسهم أمام مجدك الأقدس"
"أرزقنا رحمتك"
"واقطع عنا كل رباطات خطايانا".

* فهو عندما يضع ذاته مع الشعب الطالب المغفرة دائما يؤكد أن التحليل لا يمكن فصله أو قطعه عن باقي الصلوات الخاصة بالغفران، وهنا يعلن التحليل ما يُوهب من الرب نفسه؛ وهذه هي دلالة الكلمات العامة والشاملة:

"وإن كنا قد أخطأنا إليك في شيء،
بعلم أو بغير علم (بجهل)، أو بجزع القلب
أو بالفعل أو بالقول أو بصغر القلب"

ولعلنا نلاحظ أن هذه الصيغة هي صيغة شاملة تشمل كل ما في حياة أي إنسان.

الحل والربط حسب شرح القديس كيرلس الكبير

"فالذين غفرتم خطاياهم تغفر لهم والذين أمسكتم عليهم خطاياهم أُمسكت *retained* على الرغم من أن الله الحي وحده هو القادر على أن يعطي غفران الخطايا لكل الخطاة، فمن الذي يوهب أن يغفر خطايا الخطاة التي ارتكبوها ضد الشريعة الإلهية، إلاَّ من وضع الشريعة الإلهية ذاته أي الله؟ ولكن يمكننا أن نرى معنى هذه الكلمات بالمقارنة بما نعرفه من الحياة اليومية. مَن الذي له حق التصرف بما يشرعه ملوك الأرض، وأن يعفو وأن يتغاضى عما قرره قضاء الملوك إلاَّ الذين وُهبوا الكرامة والمقام الملوكي؟ ولذلك حكيم الذي قال: "أحمق هو الذي يقول للملك أنت تعديت الشريعة" (أيوب ٣٤: ١٨). بأي وسيلة وما هو معنى الكلمات التي قالها المخلص للتلاميذ عندما وهبهم الكرامة التي تليق بطبيعة الله وحده؟ إن الكلمة الذي في الآب لا يخطئ ومهما قال فهو يقول الحق. لقد وجب على الذين أخذوا روحه أي الله والرب، أن ينالوا القوة لكي يغفروا ويمسكوا خطايا من أرادوا لأن الروح القدس هو الذي يغفر وهو الذي يمسك الخطايا حسب إرادته رغم أن الفعل يتم بواسطة بشرية".

وبعد أن أكَّد القديس كيرلس أن القوة وليس السلطان هي خاصة بالروح القدس وتتم بواسطة إنسانية وهو ما تعبِّر عنه كلمات التحليل في القداس: "محاللين من فمي بروحك القدوس"، يكمل القديس كيرلس الشرح مؤكداً ما يجب أن نعرفه:

"الذين لديهم روح الله يغفرون ويمسكون الخطايا بطريقتين كما أعتقد. أنهم يدعون إلى المعمودية الذين تأهَّلوا لنوال السر بنقاء حياتهم وبثباتهم في الإيمان، وأيضاً يمنعون، بل يفرزون الآخرين الذين لا يستحقون هذه النعمة

الإلهية. وهناك معنى آخر: هم يغفرون ويمسكون الخطايا عندما يعطون الغفران لمن يتوبون مثلما فعل بولس الذي سلَّم الذي ارتكب خطية الزنى في كنيسة كورنثوس، وأعطاه الغفران عندما تاب ..." (شرح يوحنا، كتاب ١٢، يو ٢٠: ٢٢ – ٢٣).

الأخطاء الشائعة عندنا

في ضوء ما تقدم يمكننا أن نحصر الأخطاء التالية:

أولاً: إن للأسقف أو القس سلطان مستقل يعمل حسب الأهواء أو حسب الرغبة الشخصية، أو حتى حسب فهم الأسقف أو القس. هذا مرفوض تماماً لأن العمل هو للروح القدس، والشرح السابق للقديس كيرلس يؤكد ذلك.

ثانياً: إن طلب المغفرة الدائم حتى بعد صلاة القسمة، يؤكد أهمية التوبة ولا يضع الاعتراف شرطاً، ولاحظ قوة ودقة الصلاة:

"أيها السيد الرب الإله ضابط الكل، اللهم يا حامل خطية العالم اسبق بقبول توبة عبيدك ... نوراً للمعرفة وغفراناً للخطايا ... وإن كنا أخطأنا إليك بالقول أو بالفعل فسامح واغفر لنا كصالحٍ ومحبٍّ للبشر".

ثم يضع الأسقف أو القس نفسه مع الخطاة، ويقول:

"اللهم حاللنا، وحالل كل شعبك
من كل خطية
من كل لعنة
من كل جحود (إنكار الشكر أو الإيمان)
من كل يمين كاذبة".

فالكاهن بعد أن يطلب الحِّل لنفسه:

"حاللنا

يقول:

"وحالل كل شعبك من كل خطية".

ثالثاً: لقد جرى تقييدٌ غريب لمعنى الغفران بعيد عن الممارسة الليتورجية مقتضاه أن غفران الخطايا، إنما يتم في سر التوبة والاعتراف فقط. هذا ضد كل طلبة تقال في الكنيسة مثل الطلبة التي تقال في الصباح في أسبوع الآلام التي تنتهي بطلب: "ويغفر لنا خطايانا". وهنا نلاحظ أنه لم يتم تقييد الغفران في سر التوبة والاعتراف فقط، بل وتقييد معنى الغفران وحصره في رفع العقوبة فقط، وهو أيضاً تفسيرٌ غريب؛ لأن عقوبة الموت قد أُبيدت، إذ داسها الرب على الصليب، وطلب الغفران في الصلاة الربانية وفي غيرها إنما هو طلبٌ أساسيٌ للحياة الحرة التي تتحد بالرب يسوع الذي هو حسب الليتورجية:

"غفران خطايانا وضياء نفوسنا".

أخيراً: في كل مرةٍ نطلب غفران الخطايا، جيدٌ، بل مطلوبٌ أن يكون هذا الطلب للتوبة ونقاء القلب.

ليحفظ الرب أم الشهداء من كل تعليمٍ غريب ويرسل لنا من ينادي للمأسورين بالحرية لكي يَنعم كل أسير بمحبة الثالوث القدوس الذي له المجد الدائم إلى الأبد آمين.